قصة بقلم : محمود الخطيب

الانتظار بين شقي الجرح

في الستة اشهر الاخيرة ، التي مرت كانها اطول من ست سنوات ، اخذت خديجة تتعود ان تعيش عبر كانها ، على نمط فريد ومعل من الحياة .. ويحمل في داخله اكثر من سبب يبعث على القهر والنرفزة. ومع ذلك بقيت معلقة بخيوط ، لامرئية ، من الشوق ، بدت في عمق احلامها الجميلة قريبة وبعيدة في آن .

والملل الذي انبثق في عالمها كولادة ظل ما ، راح يتحول فيما بعد الى لحظات هي نفسها اللحظات التي تمتصها ايامها ، واخذت تشيد في صدرها شخصية كاملة ، بحجم الشخصية نفسها التي كونتها خديجة عن شعبان ، طيلة عمر زواجهما .

وهي ، رغم انها لم تختر كل ما حدث برغبة منها في بداية الامر ، الا أن ما كان يعزيها باستمرار ، انها واحدة من كثيرات ، مثيلاتها ، من الاخريات : امرأة رجلها في الحرب ..

ومع الايام الفت غلالة دنياها الرمادية التي طرات فجاة ، وسلكت فيما بعد ، مدارا طبيعيا جثم على صدرها فكبر الشوق الممزوج بالمرارة والرتابة ، حيث بدت ، لشدة القهر في بعض الاحيان ، تذوب امام لحظة واحدة من الخيال . وكانت سيرة شعبان اذا ما علقت على لسان شخص من المحيط ، ولو بشكل عابر وطبيعي ، كافية لان تحمل خديجة عبر تصورها ستة اشهر الى الوراء ، لتفرك دقائق معدودة في زخم الحياة الماضية .. وكلما تخلصت من احلامها احست ان فراق شعبان هم كبير قاعد لها على راس القلب .

ها هو الروتين الذي يسحق العظم !

كانت تردد ذلك كلما نزعت نفسها من بحر الايام القديمة ثم تطلق تنهدة تنم عن العذاب . لولا رسالة محمود التي بعث بها من الخليج قبل سنة لما عرفت خديجة ماذا تعني « روتين » هذه بين افكارها ولا حتى التفتت اليها . غير ان حرقة التعبير جعلتها تحفظ الكلمة وترددها كلما احست باللوعة . قال لها بومداك : « نحن هنا نعيش بلا نهاية مثل افق الصحراء .. نطوي بادرعنا زوبعة هائلة من الغبار ، ولكثرة ما تعودناها ، صارت الاذرع تدور لوحدها .. روتين خانق وساحق يا خديجة ! » .

بعد ان قرات الرسالة ، التفتت الى شعبان وسالته :

ـ روتين ، ماذا تعني

تنحنح شعبان ، وهو يهم ان يبصق :

ـ اذا صدق الراوي يا امراة ، فهي الاستمرار في تكرار عمل ما ..

ـ يعني ؟

ـ يعني ، عادة ، تفرضها ظروف الحياة .

وما ان انقضى على الرسالة بضع اشهر ، حتى رجع محمود ، هاجرا الصحراء ، تاركا المستقبل وراء ظهره ، وحاملا بين عينيه غربة مريرة . وعندما رآه خديجة ، بدخل فجاة ، اضطربت ، وسقطت في الدهشة دفعة واحدة :

ـ تركت شغلك ؟

سلم عليها وجلس . مسح فوديه براحته مطاطئا راسه قليلا الى الامام ، ثم اغلق عينيه بعد اطلاقة بحركة تنم عن ضجر شديد وراح يتململ بصعوبة وثقل محاولا ان يفتح له مكانا في عالم لا يتسع له :

ـ تركت شغلي ..

ـ ومستقبلك ؟

ـ مستقبلي لم يعد هناك .

ـ يا حسرة !. لماذا ؟.

ـ الصحراء كالموت ..

ـ والله ، الصحره احسن من غيرها .

فرك وجهه باصابعه واطلق اهة طويلة . تمنى ان تسكت خديجة وتريحه من هموم الاسئلة التي لم يعد لها جدوى فتبرد اعصابه ويقضي الليلة في ضيافتها . لكن خديجة التي فوجئت باخيها على هذا النحو ، بقيت مشوشة الافكار حائرة :

ـ يدي على قلبي !.

ـ لماذا ؟.

ـ طردوك ؟!.

ـ لا .

ـ اذن ؟.

ـ قرفت .. والحياة زفت .

شهقت مستوضحة :

ـ كيف ؟

ـ ضايق :

ـ جئت ، وانتهى .

***

وحامت الافكار في راسه . كاد ينطق لها بكل شيء ، لكنه تردد . كان منهكا . شعر بحاجة الى النوم . تململ . اراد ان يقول لها ان الشمس تشرق في زمن الليل ، وها هي تدفدغ الافكار والمشاعر ، وتخلق الامال التي كانت حلما .. وخلخلت القضبان على السجين وانطلق في مناخ الدهشة .. والاغراب صار فضيحة لا نطاق .. ولم يبق الا نحن لكي نصعد مع الشمس ونخلق من صمتنا المعجزات . غير انه شعر بالحرج امام هذا السلوك ، فتردد مرة اخرى ، ووضعها امام الحقيقة مباشرة :

ـ البلاد طلبت اهلها .

ـ ماذا ؟!.

ـ غدا ..

فقاطعته :

ـ غدا ، ماذا ؟..

ـ الحق بغري .

دقت على صدرها بعجب :

ـ محمود !.

فتنهد واكمل :

ـ ما هربت من الصحراء الا لانني لم اعد اعرف نفسي . عرق وتعب ورمال تعمي العيون وعار . وكل شيء هناك يبدو صغيرا امام الياس الذي اصبح فارسا لا يقهر . هل يفوتني العمر ؟ لا . عدت بعد ان كنا نسمع اخبار الرجال ونسكر عليها . يا لها من لحظات رومنطيقية اشبه بالحلم بحيث يصبح العالم الحقيقي امامها بحجم الفجاجة . لحظات يشعر الانسان فيها انه البطل والجبان ، المنتصر والمهزوم ، العائد والشهيد في آن . عالم متلاطم ممزوج من الشجاعة والانهيار يدور داخل جدران زجاجة . اتركيني يا خديجة . فما جئت لكي اعود من حيث اتيت ..

اول الامر ، رفضت ان تخضع للفكرة التي بقها شعبان كالطلقة . كانت فكرة غريبة ، طارئة، وغامضة ، ولشدة دهشتها وارتباكها ، شهقت مرة واحدة ، وراحت تتاتيء :

ـ السلاح للشباب يا شعبان !.

ضحك ، ثم رفع اصابعه الخشنة وتحسس وجهه :

ـ عجزت يا خديجة ؟.

ـ اترك الحرب لغيرك .. راح ابوك ومحمود وسكتنا .. وما بقي غيرك ..

ـ عيب يا خديجة .. يذهب الوالد ومحمود وابقى انا ؟!.

ـ والاولاد ؟.

ـ لولا الاولاد لاخذتك قدامي .

لطمت فخذها ، مصت شفتيها ، نطقت بقهر :

ـ الكف لا تناطح المخرز .

ـ السلاح في الكف ، اوجع من المخرز .

ـ لا .

واشارت الى اطفالها متوسلة :

ـ دخيلك !. الموت اهون من حياة اليتم .

صمت . هبت المشاعر تعصف في صدره . وكلما حاول ان يكظم الغيظ ، قح من اعماقه كالجريح .

داهمته بالسؤال :

ـ سكتا يا شعبان ؟.

تطلع اليها فكادت تذوب امام عينيه :

ـ حياة اليتم يا خديجة ، اهون من اب لا يملك ان يمنح اولاده شيئا ..

ثم طاطا راسه محاولا التخلص من جولة الحوار ونق الكلام الذي لم يعد يجدي . فبدت الحركة التي قام بها ، درامية وثقيلة ، فيما اطلق نفخة كسولة بقيت مسترسلة لهنيهة . لقد فرر وانتهى . وغيره ليس احسن منه ولا ارجل . والمسالة باتت في ذمة الوقت ليس اكثر . متى يرحل ؟. فكر اولا بالوالد وبمحمود وباخبارهما واين اصبحت ارضاهما . لم عاد وفكر بخديجة والاولاد .. الشجرة والذرية .. وبدت المسالة اكبر من ان يمر عليها بسهولة .. ففي الحياة التعسة كانت خديجة ، هناك دائما ، تشاركه النزف والمعاناة والالم . شعر بالمرارة تسد حلقه فبلع ريقه كانه يبلع كرة من الرصاص . غير انه، في حمى الاصرار ، اخذ يقنع نفسه : الاهم اولا ، ثم المهم . تذكر الماضي ، والماضي البعيد ، فجاءه الخيال ممغوطا كمن يرى حلما ضبابيا في المنام . كان صغيرا يومذاك ولا يذكر الا القليل : حواكير الرمان .. ساحة «كفركنة» .. « الشعراوية » في الاعراس .. لحن «المجوز» يصدح بين شفتي يوسف المرعي شيخ الرعيان .. الارض .. الموسم .. باص محسن الذي يقرقع وهو يشق طريقه بين « السناسل » . تذكر الناصرة وام الفحم والرينة ومشواره الوحيد اليها ايام السعادة وهدوء البال . خامره شعور بالضحك لولا الاعصاب التي كانت تالفة ، عندما تذكر المثل القديم : « شباب الرينة كل عشرة بقطينة » . فهز راسه وكاد يسخر . شباب الرينة الان في الحرب . قلبوا الارض على رؤوس غيرهم . فارعوا الليل وحطموا المستحيل حتى صار كل واحد منهم بعشرة رجال . كان الناس ، ايام زمان ، منغرقين لحق الحنك والمسخرة الفاضية .. لا هم ولا يحزنون !.

رفع راسه وتنهد ، فوجد خديجة صامتة وقد اسفطت ذقنها بين اصابعها ، وعيناها ناكستان الى الارض . وعندما رفعت وجهها بجمع البكاء بين رعشات شفتيها ، فنظرت اليه :

ـ فكرت ؟.

ـ كل شيء ، انتهى .

ترددت قليلا .

ـ يعني ، نويت ؟

ـ ولا يمنعني الا ملك الموت .

فتحت ذراعيها واسفطتهما على فخذيها باسترخاء ثم لوت شفتيها :

ـ الدنيا ما لها امان .. ماذا فعلت ، حتى يقع علي هذا الجور ؟.

استغرب شعبان :

ـ ولو !.. ما صار الا الخير .. انا مثل غيري !.

وداهمت افكاره قصة خديجة التي حكتها له بعد ان تزوجت منه . وهي ما تزال ترن في راسه كلما عاد بخياله الى الوراء ، كانه هو الذي عاشها وقاسى منها . كانت حكاية يصعب على الصغير ان ينسى تفاصيلها مهما تراكمت فوقها الايام . كانت خديجة تحكي : بعض الاشياء لا ينسى .. يبقى في الراس كالمخرز ، وكل ما تحرك ، يفقد المرء صوابه . وعندما تغرق في الحديث تشهق من الحسرة وتكاد الدموع تتساقط بحجم الكلمات : كنت صغيرة يا دوب اوعى الحوادث ، وكنا طالعين من الطيه بعد ان سقطت بيسان ، واحتلوا سيرين وعولم ومعذر في الطريق . الناس تلك الايام ، لشدة الاطمئنان يا حسرة ، ما كان عندها لا بارود ولا قنابل . ولما صرنا على طريق شرق الاردن اوقفونا للتفتيش. كنت راكبة وراء امي على الفرس وكنت حاملة بيدي طابة اسفنج من النوع الغالي اشتراها والدي من بيسان قبل الاحتلال باسابيع . كنت العب بها ومبسوطة ، وغيري يلعب معي . فشوفنا ما وجدوا معنا الا بعض الفروش ، اخلوها .

ونقفت اصبعها بسنها ، وتابعت : الله وكيل، ظلمنا بالزلط ..

وبعد التفتيش جاء العسكري، الي، وسالني : ما هذا ؟. افتحي يدك ؟. وضعت يدي على صدري وشددت بعزم : هذه لي . قال : هات ! فبكيت . دفعني في صدري واخذها فسقطت عن ظهر الفرس وكسرت ذراعي ورحت اصرخ من الوجع . هجم والدي ليخلصني فهجموا عليه ومنعوه ، لكنه صاح في الجندي : عيب يا عسكري ، تتعرجل على بنت صغيرة !. ضربوه بكعاب البنادق حتى اهلكوه . والدي صاحب نفس ، عز عليه الامر ولم يحتمل . في زمانه ، نقف « ضابط انكليزي » برصاصة ، لانه اهانه بكلمة فطر دماغه . حبسوه سنتين في عكا . المهم . وصلنا الى شرق الاردن وظلت المشكلة تدور في راسه حتى طق من الكيد .

سالها شعبان :

ـ نسيت قصة اليهودي ؟.

فسكتت ...

وبعد ايام ، لم يكن رحيله مفاجئا الى الحد الذي يجعلها تغرق في الدهشة لعدم توقعه ، بل كان الحديث عنه بدور بينهما كلما انعدم الحديث عن اشياء اخرى ، حتى باتت خديجة تعيش في جوّه وتكاد تالفه .

ـ يا خديجة ؟.. جهزي الزوادة قبل النوم حتى لا اتاخر ..

لم تجب . قامت من مكانها ودهنت رغيفين بالزيت ولفتهما بقطعة قميص ، ثم وضعتهما فوق برميل الغسيل وعادت الى مكانها . فتش شعبان في جيبه ، فاخرج بضع قروش ، خرخش بها ، ومدها اليها .

وتراكضت في راسه الافكار .. والحسرة تكبر كلما مر الوقت .. وفي كل مرة يحاول ان يفكر بالاولاد تتحرك في عالمه ذكريات كفركنة . بقي صامتا . وفي الليل ضاجع خديجة بحرارة ولهفة .. ثم سرح مع الظلام حتى غفا ..

***

رغم مرور الستة اشهر الاخيرة ، الا ان اللهفة الى شعبان ، بقيت قابعة ، في اعماق خديجة تنتظر من يفجرها بكلمة . وما ان وصل خليل ، زوج الفورانية ، مساء اليوم ، وقال لها ، وهو يمتشق سلاحه ، ودون ان يطرح السلام : غدا ، يصل شعبان . حتى طارت من الفرحة ، ولم تتمالك اعصابها ، وزغردت . قال خليل باندهاش : يا ساتر !..

ـ متى ؟.

ـ في الليل .

وسقطت على راسها ، دفعة واحدة ، كل الذكريات . من يوم السفر حتى اليوم . وتراءى لها شعبان اكبر حجما مما كان عليه في السابق، فتذكرت بسام حسين ، التي قالت لها مرة ، عند حنفيات الماء :

ـ سمعنا ، شعبان لحق بغيره .. صحيح ؟

ـ آ ، يا حسرة ، وتركنا وحدنا .

قالت ام حسين باستهجان :

ـ استحي يا خديجة .. هو ، احسن من الرجال ؟.

ـ والمصيبة ! فوق هذا ، قال ، لولا الاولاد ايلغني قدامه !

ـ خير ، لو فعل ..

ـ ولو ، يا ام حسين !.

ـ الايام تغيرت . والله ، لولا عجزي لذهبت يا بنتي ، بعض النسوان احسن من الرجال ..

تفلز الواحدة عن سابع طابق وتظل واقفة .. يحرسهن الله .. سمعت ؟.. بنات مثل الورد ، قالت لها : استحي ، هو احسن من الرجال ؟. هتف في نفسها : لا . لا احسن ولا ابطل . بدونه ، وبدون امثاله لا صرنا ولا مشينا . لا الخبرة ولا كفركنه . سلامتك !. مكانك في المخيم . حياة وسخ واهانة . وفي النهاية ، الادهى والامر ، ابنك قتال او بوبجي . وطول النهار تحت رحمة عسكري الدورية .. جاعص ، يتمطتر ، مثل ديك الحبش . فشر !. طالما وقف شعبان على رجليه ، فلا خوف عليك يا وطن ..

ام حسين اصلب من الصخر . اعصابها من حديد . ويوم رحل اولادها لم تودعهم . حملتهم الزوادة وغابت كل النهار ، وما عادت الا بعد ذهابهم . امراة ، عركها الدهر وذاقت الحلو والمر . لا تنطق الا عن خبرة وتجارب : الرجال ليوم المحن .. ما فائدتهم الان ؟. تمنت خديجة لو يحضر شعبان في وضح النهار ، فيمر بين البيوت ، شامخا بسلاحه ، ويراه الجميع .. ويراه عسكري الدورية ليبول تحته .

الشوق للحبايب يصنعه غيابهم . هوّمت في العاطفة وذابت . ستة اشهر تجعل العواطف تولد ، مرة ، في اللحظة . شعبان يصل الليلة. اضحكي يا دنيا . لملمت فرشتها و « طرابيح » الاولاد . كنست المكان ونظفته . سحبت منديلها ووضعته على راسها. قالت للاولاد : راجعة ..

اخذت صحن النحاس عن الارض ، وذهبت الى ام حسين :

ـ ام حسين ؟

انشق الباب واطلت العجوز :

ـ صباحك مسك .

مدت خديجة الصحن ، وقالت :

ـ اعطني دجاجة مقابل هذا الصحن ... الجيب فارغة ؟

ـ خير ؟.

ـ شعبان يصل الليلة .

اعادت الصحن اليها :

ـ عيب . شعبان مثل ولدي . ضيف السعادة !. ادخلي ؟.

دخلت . تربعت على الارض ووضعت الصحن في فرجها . انتظرت ان تسمع شيئا يداعب اللهفة المتاججة في مشاعرها .. كان شعبان زوج جميع النساء !. في عينيها بريق لا يوصف . والدم في وجهها يكاد ، بنقفة اصبع ، يتفجر . لكن ، ام حسين ، ساكتة !. اصلب من الصخر . اولادها الثلاثة في الحرب . ليت للنساء اعصابها .

قالت العجوز :

ـ كباية شاي ؟.

ـ مستعجلة .

ـ النهار في اوله !.

ـ بلاها .

ـ يا بنتي . اكيد ، وقت شعبان ضيق . اساليه ان كان يسمع عن الاولاد ؟..

نظرت ام حسين . رق قلبها والدمعة تلمع في عينيها . ذابت اعصاب الحديد في لوعة المشاعر . الله ، يكون في عونها . قلب الام لا يتغير . قال المثل : قلبي على ولدي ..

اخذ ت الدجاجة وذهبت الى محمد الموسى ليذبحها . عادت الى البيت . حلقت في افكار هلامية ، فالافكار في اللحظات الزئبقية يصعب حصرها .. تتدحرج مثل الكرات ، واتجاهاتها لا تعرف . كل الافكار والعواطف مع شعبان . يوم السعادة يا خديجة . مبروك ، الفا مبروك . اضحكي يا دنيا .

نظفت الدجاجة . فطمتها. وضعتها على النار. كانت كبيرة ، طرية ، وسمينة . شكرت لام حسين عملها : بنت حلال . بحرسها الله . رفضت ثمن الدجاجة .

اولادها يتعاركون مثل القطط ، والصراخ يملا البيت . لا سائل ولا مسؤول ، مشغولة بالاهم . دارت في المكان بدون سبب . تفقدت الفراغ بعينيها . استعادت في ذهنها كلمات العسكري فطفح غيظها : عاهرة ؟! يا ابن العاهرة !. وطفرت الدمعة من عينيها . آخ . سيطة !. حسابك ، عندما يحضر شعبان .

حلما !. صنع نفسه في بؤرة الثبات . وُجد . تحدد بحجم ماخلقه . صار اكبر من جبل ، اكبر من الفكرة والحركة .. طبع نفسه في جبين الدنيا ..

تذكرت خديجة كلام عسكري الدورية فساورها الحياء على ما فات . فراق الحبايب صعب . لكن كلام العسكري اصعب وبشق القلب . ام حسين قالت لها : استحي ، هو احسن من الرجال ؟. هتف في نفسها : لا . لا احسن ولا ابطل . بدونه ، وبدون امثاله لا صرنا ولا مشينا . لا الخبرة ولا كفركنه . سلامتك !. مكانك في المخيم . حياة وسخ واهانة . وفي النهاية ، الادهى والامر ، ابنك قتال او بوبجي . وطول النهار تحت رحمة عسكري الدورية .. جاعص ، يتمطتر ، مثل ديك الحبش . فشر !. طالما وقف شعبان على رجليه ، فلا خوف عليك يا وطن ..

ام حسين اصلب من الصخر . اعصابها من حديد . ويوم رحل اولادها لم تودعهم . حملتهم الزوادة وغابت كل النهار ، وما عادت الا بعد ذهابهم . امراة ، عركها الدهر وذاقت الحلو والمر . لا تنطق الا عن خبرة وتجارب : الرجال ليوم المحن .. ما فائدتهم الان ؟. تمنت خديجة لو يحضر شعبان في وضح النهار ، فيمر بين البيوت ، شامخا بسلاحه ، ويراه الجميع .. ويراه عسكري الدورية ليبول تحته .

الشوق للحبايب يصنعه غيابهم . هوّمت في العاطفة وذابت . ستة اشهر تجعل العواطف تولد ، مرة ، في اللحظة . شعبان يصل الليلة. اضحكي يا دنيا . لملمت فرشتها و « طرابيح » الاولاد . كنست المكان ونظفته . سحبت منديلها ووضعته على راسها. قالت للاولاد : راجعة ..

اخذت صحن النحاس عن الارض ، وذهبت الى ام حسين :

ـ ام حسين ؟

انشق الباب واطلت العجوز :

ـ صباحك مسك .

مدت خديجة الصحن ، وقالت :

ـ اعطني دجاجة مقابل هذا الصحن ... الجيب فارغة ؟

ـ خير ؟.

ـ شعبان يصل الليلة .

اعادت الصحن اليها :

ـ عيب . شعبان مثل ولدي . ضيف السعادة !. ادخلي ؟.

دخلت . تربعت على الارض ووضعت الصحن في فرجها . انتظرت ان تسمع شيئا يداعب اللهفة المتاججة في مشاعرها .. كان شعبان زوج جميع النساء !. في عينيها بريق لا يوصف . والدم في وجهها يكاد ، بنقفة اصبع ، يتفجر . لكن ، ام حسين ، ساكتة !. اصلب من الصخر . اولادها الثلاثة في الحرب . ليت للنساء اعصابها .

قالت العجوز :

ـ كباية شاي ؟.

ـ مستعجلة .

ـ النهار في اوله !.

ـ بلاها .

ـ يا بنتي . اكيد ، وقت شعبان ضيق . اساليه ان كان يسمع عن الاولاد ؟..

نظرت ام حسين . رق قلبها والدمعة تلمع في عينيها . ذابت اعصاب الحديد في لوعة المشاعر . الله ، يكون في عونها . قلب الام لا يتغير . قال المثل : قلبي على ولدي ..

اخذ ت الدجاجة وذهبت الى محمد الموسى ليذبحها . عادت الى البيت . حلقت في افكار هلامية ، فالافكار في اللحظات الزئبقية يصعب حصرها .. تتدحرج مثل الكرات ، واتجاهاتها لا تعرف . كل الافكار والعواطف مع شعبان . يوم السعادة يا خديجة . مبروك ، الفا مبروك . اضحكي يا دنيا .

نظفت الدجاجة . فطمتها. وضعتها على النار. كانت كبيرة ، طرية ، وسمينة . شكرت لام حسين عملها : بنت حلال . بحرسها الله . رفضت ثمن الدجاجة .

اولادها يتعاركون مثل القطط ، والصراخ يملا البيت . لا سائل ولا مسؤول ، مشغولة بالاهم . دارت في المكان بدون سبب . تفقدت الفراغ بعينيها . استعادت في ذهنها كلمات العسكري فطفح غيظها : عاهرة ؟! يا ابن العاهرة !. وطفرت الدمعة من عينيها . آخ . سيطة !. حسابك ، عندما يحضر شعبان .

تضايقت من الصراخ : هي يا ولد !.

في المساء ، بدت الفيظة ظاهرة على ملامحها . فالحركات والتصرفات سريعة ومختصرة . كان النهار طويلا . والدقيقة فيه اطول من يوم . قلبها يخفق واعصابها مضطربة . كانها تتزوج الليلة . ما اصعب الانتظار عشية وصول الحبايب !. دكت الوابور ووضعت فوقه سطل الماء . تناولت « لجن » الغسيل وفرشته على الارض . همهمت باغنية شعبية حفظتها عن امها التي كانت تغنيها ايام العز في الطيرة . فتحت « التنمية » ، فتصاعد صريرها ، وتناولت قطعة صغيرة من صابون « ابو دبك » . مشت في مدى المكان واغلقت الباب بالشنكل ثم نقلت السراج الى زاوية بعيدة . قالت للاولاد : بدون صوت !. لكي اسمع الذي يمر في الطريق . خلعت ملابسها وتربعت في « اللجن » وغرفت من الماء بعلبة فارغة وراحت تستحم ..

نظرت الى جسدها ، فتصدى لها الخيال ، واحست برعشة . قالت في نفسها : ندر علي ، ان حضرت الليلة يا شعبان ، لانسيك تعب الحرب !. وراحت تدندن تحت دلق الماء . قال اصغر الاولاد : يامه .. تاخر ابونا !. صحت فجاة واحست بالخيبة . قال الله ولا قالك !. تذكرت امها التي كانت تقول لها دائما : العصفار مثل الملائكة . لم تكثرث . امها عجوز خرفانة . والصغار يكذبون اكثر من الكبار . صرخت في الصغير : اسكت !.

هبت نسمة باردة فخشخش الباب واحست بلسعة . ارتجفت : اح . مشطت شعرها وللمته تحت منديلها . نهضت ونشفت جسمها وارتدت ملابسها . فتحت الباب ودلقت الماء ثم اغلقته بالشنكل . نفست الوابور فانطفات الشعلة . نظرت في مراة مشروخة فارتاحت لمنظرها وعادت الى الاولاد ، جلست بينهم ، وبدات تغني بصوت منخفض ..

***

قال الصغير :

ـ مد الليل .. وتاخر ابونا !.

حزنت . وهامت في الفراغ فخفق قلبها . قالت للصغير :

ـ الليل في اوله .

ـ نعسنا !.

فرشت لهم ، وطرحت فوقهم الاغطية . خففت شعلة السراج . بقيت وحدها . نام الاولاد وانتصف الليل . جلست في فراشها والقت اللحاف على فخذيها . فلت عيناها مفتوحتان على الفراغ ، والسمع مشدود الى الصمت . سمعت وقع خطوات وراء الباب فابتلعت انفاسها وظلت متحفزة حتى ابتعدت الخطوات . تحسرت ! وانفلتت اللحظة في النسيج الزمني فاصبحت بلا نهاية . يا للصبر الطويل الذي ذبح ، فجاة على عتبة الانتظار . خديجة من لحم ودم وعواطف !. وقد غرقت كالقطرة في هدير الشوق نازلتها الخيبة في جولة مرة فتاوهت ، وغابت في ماساة الانسان العاجز عن الاحتمال . بقيت محدقة الى حيث ينشق الظلام ويدخل . تاخر !. داهمها النعاس وتثاءبت . وضعت كوعيها على فخذيها وانطوت قليلا الى الامام . تراخت فكادت تسقط . هدير الشوق يتخدر كاللغز النابت في النوم . وعيناها الحالمتان ، ترقبان ، عبر حفنة من الماء . وها هو الصمت ينسلخ عن حدود الوعي . تاخر !. وانطلقت اشباح هيولية تنمط في الفراغ مثل موجات من الدخان . اللحظة واحدة ، ترتجف مثل انعكاس ضوء المراة بين طرفين شديدي الالتصاق : خديجة في شعبان ، وشعبان في خديجة .

ـ تاخرت ؟!.

ـ ولا رايتك .

ـ وانا انتظرت .

ـ ستة اشهر تعصر القلب !.

ـ صافة !.

ـ اطول من يوم في زمن الهجرة .

ـ مشتاق ؟.

ـ الرجل يولد في شيئين ، وبدوم بيقائهما : المراة والوطن .

ـ تحيا يا معدن الذهب !.

ـ بل اهتفي : يا « معدن » الارض .

ـ لا تحزن ، فالذهب في الارض .

ـ لذلك ، فالارض اغلى ..

ـ صرت سبيعة السن !. علموك ؟.

ـ علمونا ان بين اول الخطوة واخرها ، في ارض الوطن ، اكثر من الفراغ : فيها اشبار ثلاثة من التراب ، وفي كل شبر يموت رجل ، حتى يعود التراب اليه . علمونا كيف نصنع من الهواء نارا ، ومن القحط ربيعا ، ومن الماء سما ، ومن السم ماء . علمونا كيف يصير الرجل الشرار الموصل بين البرق والرعد . وقالوا ان للعذاب نهاية، وللجوع نهاية ، وللحزن والتشرد نهاية .. وانا نصعد في كبد الشمس .. وكيف صار الليل ذبيحا تحت اقدام الرجال.

ـ اوووه !

ـ فهمت ؟.

ـ اسمع لاول مرة !.

ـ وانا سمعت لاول مرة حكاية مريرة عن رجل تخشب بين السماء والارض : مع اولى خطوات الهجرة . سقطت دمعة من عينيه . اختفت قبل ان تصل الارض . بقيت معلقة ، هناك ، لامرئية، بين طرفي المسافة ، كورم سحري بين الحلق والمعدة . ومن يومها لم يبك ، ولم يذق طعم الدمع .

ـ صحيح ؟!.

ـ حي برزق !.

ـ من اين ؟.

ـ من « سيرين » .

ـ يا حسرة !.

ـ لا . انتحرت الحسرة في دنياه بعد ان فتح ذراعيه للشمس ..

ـ كيفا ؟.

ـ نطارد في فلك واحد .

ـ تحيا يا حقل المرجان !.

ـ بل اهتفي : يا حقل الماسي الذي بذر في صلبه الحصاد .

ـ شعبان ؟.

ـ آ ، يا امراتي .

ـ كانك شهريار !!.

ـ ها . ها . ها . غاب في الحلم ولم يذق قطرة من حزني ولا عاري .

ـ سندباد ؟.

ـ جاب البر والبحر دون ان يعرف مرارة الدمع .

ـ عنتر ؟.

ـ فشر !. كان فارسا بلا احشاء .

ـ من ، اذن ؟.

ـ قولي ، فقط ، شعبان .

ـ يا زوجي .. احن اليك !.

ـ قدماي على ضفتي النهر ، وكل منهما تسحب الاخرى .

ـ تصال ؟.

ـ افتح ذراعي لامراتي .. لحمها من لحمي .. ودمها من دمي .. والشوق اليها جمر في صدري يتوهج ..

ـ مثلي ؟!.

ـ واكثر .

ـ قل ، بعد ، يا شعبان .

ـ في ليل البراري ، والجبال ، والصمت المترقب ، انت امام عيني دافئة كسلاحي .. بيني وبينك عمر ضمناه من عذابنا ومآسينا ودردشاتنا الصغيرة .. بيني وبينك يا امراتي ، ما بين الطيرة وكفركنة .

ـ انتظرت كثيرا !.

ـ بهون البعد يا خديجة .

ـ ستة اشهر ؟!.

ـ وستون !.. يعزيني اقتراب المسافة الى كفركنة .

ـ هيا . تعال ؟..

ـ سافقط المسافة اليك .

ـ ذراعاي مفتوحتان .. والحنين في عيني يزغرد .

ـ وانا في الطريق ..

ـ اقترب ..

ـ ...

ـ اقترب .. اقترب ..

ـ ...

ـ ...

ـ ...

وظلت منطوية الى الامام ، راسها يكاد يلامس ركبتيها ، وذراعاها محشورتان في حضنها ملفية بثقل ظهرها عليهما ، غارقة في النوم ، تنتظر ، حتى طلع الفجر .. لكن شعبان قد تاخر .

الكويت ـ (الاحمدي)